مَصَاديقُ الولايَةِ للأمامَةِ بَعْدَ النُّبوَّةِ في القُرْآنِ الكَرِيمِ
بَيْنَ شَرْعِيَّةِ النَّصِّ وَمَفْهُومِ الإِخْتِيارِ

(بحث أستدلالي)

سماحة الشيخ موسى راضي نصار
استاذ في الحوزة العلمية
النجف الاشرف -العراق

فحوى البحث

بحث استدلالي يخوض في ما رسمه لنا عنوانه. ولعل إدراج بحث (ولاية الامامة، ضمن المباحث القرآنية، يمكن ان يوقفنا على مقاربة ترتقي بالباحث الى ايجاد ارضية مشتركة بين المنهج القرآني والنبوي في مبحث الامامة. بحيث يعمل كل من اراد الوصول الى الحقيقة بطريقته الخاصة في البحث.

وبالنظر لطول البحث، اقتصرت المجلة على نشر ما يجري منه في سياق اختصاصها المتمثل بالبحث القرآني واراء المفسرين وعلماء العقائد.

مدخل:

اقتضت حكمة الله تعالى في الاديان ان يكون الدين الاسلامي من بينها دينا دستوريا يتخذ من القرآن الكريم مرجعية تشريعية تحكي مسيرة الاصلاح الاجتماعي، بوصفه منظومة من القوانين الاصلاحية يتداخل فيها الديني والاخلاقي والسياسي، ليس فيه تطرف ولا تساهل مع الحق والمهمة التي اتى من اجلها اعطاء الحق لكل من يستحقه.

فالقرآن الكريم هو مرجع الامة عند الاختلاف، ومن حكم به لم يخطيء العدل ومن عمل به يكون مهتديا بنوره وهاديا الى الحق لقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ ﴾ [سورة يونس: ٣٥].

فالهداية اذن طريق الايصال الى الحق بنفس المهتدي لا بوساطة غيره، قوله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [سورة الدهر: ٣].

ولكي تصح أية معالجة طريقها الاهتداء اذ كانت عقدية او اخلاقية او سياسية ذات معنى وجودي ينبغي ان يكون الطريق المؤدي الى معالجتها طريق القرآن، وهو الحق الذي ينبغي بالضرورة ان يمتثل لاحكامه بالقبول كل من يؤمن بالقرآن الكريم هاديا الى الحق ليوصله الى سعادة الدنيا والاخرة، ومحصل هذه السعادة هو الايمان بالدين الحق، وهو عند الله الاسلام.

وان السبيل المهتدي اليه والذى اشارت اليه الاية هو سبيل اختياري وان الشكر والكفر اللذين يترتبان على الهداية المذكورة واقعان في مستقر الاختيار للانسان ان يتلبس بايهما شاء من غير اكراه واجبار[1] قال -تعالى -: ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾[سورة عبس: ٢٠].

ومعنى السبيل هنا الطريق القويم المتكامل المؤدي الى الايمان وتيسيره له هو هبة العقل وتمكينه من النظر بجلاء الى الطريق الذي يريد سلوكه طريق الخير او طريق الشر[2] فهو مخير باي الوسيلة اعتمد واي الدلالة اختار للوصول الى

(١) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج٢٠، ص١٢٢.

(٢) الالوسي: روح المعاني، ج١٥، ص٢٤٦.

ما يريد لذا نجد كل الايات الحاكية لمعنى الهداية جاءت بامر منه تعالى فهو الهادي الى الطريق، فكلما اسندت الهداية اليه تعالى تستند الى القرآن كقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[سورة الاسراء: ٩] وكذلك اسنادها للنبي ﷺ لقوله تعالى ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [سورة القصص: ٥٦].

والمعنى انك لا تتمكن من اراءة الطريق لكل من احببت بل انما يمكنك اراءته لمن اردنا[٣] هدايته.

اذن الهداية التي هي بمعنى اراءة الطريق وتنشيط حركة المهتدين وتلقين قيم التقوى للمتقين، فقد وصف الله تعالى كتابه في آيات اخرى بانه هدى للمتقين كقوله ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[سورة البقرة: ٢] وكذلك وصفه تعالى بانه هدى للمسلمين كقوله تعالى ﴿ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[سورة النحل: ١٠٢] اذن القرآن الكريم هاد للجميع: للمتقين والعلماء العاملين به وكذلك سواد الناس وذلك لعدم تناهي معارفه وعدم امكان الاحاطة بعلومه لغيره عز وجل فالكل يستفيض منه بقدر قابليته.

وليس المراد بالمتقين خصوصاً من بلغ المرتبة القصوى في ايمانه وتقواه لان القرآن الكريم نافع وهاد لجميع المراتب بل وجميع الناس، ولا تختص هدايته بالمتقين فقط لان الوصف لا يدل على المفهوم خصوصا مع التصريح بالعموم في آيات كثيرة[٤] بل هي صفة جامعة لجميع المراتب الايمانية، فوصفهم بانهم على هدى من ربهم. فدل ذلك على ان تلبُّسهم بهذه الصفات الكريمة جاء باعتبار هذا الفعل امرا محمودا، فهم انما صاروا متقين لتلبسهم بهذه الصفات – وهي صفات المتقين–بهداية منه تعالى، ثم وصف الكتاب بانه هدى لهؤلاء المتقيين بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[سورة البقرة: ٢] وبذلك ظهر ان هؤلاء وهم متقون

(٣) الالوسي: روح المعاني، ج١، ص٩٤.

(٤) السبزواري: مواهب الرحمن، ج١، ص٦٣.

محفوفون بهدايتين، هداية اولى بها صاروا متقين وهداية ثانية، اكرمهم الله سبحانه بها بعد التقوى[٥] فتصبح الهداية كلها من الله تعالى وقد قال في نعتها ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ ﴾[سورة الانعام: ١٢٥].

اذن وظيفة القرآن ان يهدي للتي هي احسن، ليس عن طريق الايمان الديني وحده وانما عن طريق التفكير العقلي السليم الذي يهدي الى اراءة الطريق والوصول الى الغاية المطلوبة بحسب تكوين رؤية تكاملية في الايمان مصحوبة بالدعاء بوصفه عاملا يساعد على استمرار الهداية لقوله تعالى ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا ﴾ [سورة آل عمران: ٨] أي ثبتنا على الهداية القائمة على الايمان وهناك ثمة هداية خص بها الدعاة الى الله، وهم اصحاب رسول الله ﷺ حتى مكنهم الله وتولى امرهم وولاهم امر هداية عباده حيث قال ﴿ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [سورة النساء: ٧١] وقال تعالى في وصفهم ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴾ [سورة المائدة: ٥٥][٦]. ولعل من اوضح طرق الهداية في القرآن الكريم ((ولاية الامامة)) فهناك تلازم بين الهداية والامامة، فكلما تعرض القرآن لمعنى الامامة تعرض معها للهداية كقوله تعالى ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[سورة السجدة: ٢٤] فوصفها بالهداية وصف تعريف، ثم قيدها بالامر فبيّن ان الامامة ليست مطلق الهداية بل هي الهداية التي تقع بامر الله[٧].

ولعل إدراج بحث ((ولاية الامامة)) ضمن المباحث القرآنية يمكن ان يوقفنا على مقاربة ترتقي بالباحث الى ايجاد ارضية مشتركة بين المنهج القرآني

(٥) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٤٤.

(٦) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٣٤.

(٧) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٢٧٢. والاية نازلة في امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام بالاخبار المتواترة.

والنبوي في مبحث الأمامة بحيث يعمل كل من اراد الوصول الى الحقيقة بطريقته الخاصة -في البحث- ما دام القرآن الكريم هو اصل تشريعها، ولم يضع قيودا على البحث بما تقتضيه الادلة الثبوتية وفقا لاحكام النص القرآني في ولاية الامامة وما التزم به النص النبوي في آياتها وفق ما التقى عليه الاجماع.

والمثير في الامر ان كل فريق من مفكري الاسلام حاول اظهار ولاية الامامة بالقدر الذي يمكن معه ان يثبت بأدلته المعتمدة لديه سواء تعلق اثباتها بالمضمون او بالنص بناء على مرجعيته المعيارية، ومن هنا استمد موضوع الامامة طابعا جدليا بين فرقاء الفكر الاسلامي، وقد عني العلماء بتقريرها على انها اساس الفكر الديني السياسي، لانها من نمط الهداية الايصالية لاقامة العدل بين الناس.

وليس من الممكن تنفيذ العدالة التي ينشدها الاسلام الا عن طريق حكومة ((الدولة العادلة)) التي تقوم على ((ولاية الامامة المعصومة)) لان نواميس الحياة وقوانين المجتمعات تقضي بأقامة حكومة مهمتها سياسة الناس واقامة العدل بينهم، والاسلام من تلك المجتمعات التي تحتاج الى حكومة عادلة تتولى شؤونهم وتراعي مصالحهم كما اراد الله لها ان تطبق في المجتمعات المسلمة في ضوء القرآن ونهج السنة، وهذا ما حصل فعلا بتفويض منه تعالى الى رسولهﷺ في تولي الامام علي بن ابي طالبؑ الخلافة بعد النبيﷺ لان ولاية الامامة مكملة لولاية النبوة، وليس من المصالح العامة التي تفوض الى نظر الامة، بل هي ركن من اركان الدين وقاعدة من قواعد الحكم في الاسلام لا يجوز للنبي اغفالها او تفويضها للناس، ولا يصح ان تكون الامامة بالاختيار وآيات القرآن تشير الى بطلان ذلك الاختيار الا بنص منه تعالى لقوله ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾[سورة القصص: ٦٨].

مادامت الاية تشير الى العموم دون الخصوص وان الله تعالى يختار في ما يامر

به من تشريع الاحكام والقوانين ما يشاء، فيكون مفاد الاية ان ليس للناس الاختيار في أي شيء يرجع حكمه وامره الى الله تعالى فهو الذي يختار تشريع ما تختص به النبوة وكذلك الامامة لكونها متفرعة عن النبوة.

البعد الزماني لولاية الامة من خلال شخص المعصوم في القرآن:

انطلاقاً مما تقدم يمكن القول: ان الصورة التي يعرضها القرآن الكريم عن الولاية التشريعية لا يمكن اخضاعها لزمن معين وينتهي، وكأنها تعكس تشريعا محدداً بحدود ولاية الحكم التي يتجسد فيها كل مظاهر الاقتدار على المناورة والغلبة، ومثل هذه الولاية ليس لها إلا أسم الولاية من غير مسمى لواقعها، وليست هي إلا مفترضة افتراضاً لا حقيقة له ووهماً لا واقع تشريعي له، وإنما حقيقة الولاية المشمولة بامره تعالى وكونها متهيئة بحيث متى تعلقت الارادة بوجودها على الارض من اجل هداية الناس ودعوتهم الى الحق كان ذلك هو المتبادر لوجودها لقوله تعالى ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [سورة الرعد: ٧] وعند نزول هذه الاية روي عن سعيد بن جبير (قتله الحجاج سنة ٩٥ هـ -٧١٣م) عن أبن عباس قال: وضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال: انا المنذر، واوما بيده الى كتف علي عليه السلام وقال: انت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي، كما روي عنه عليه السلام قال: في الاية: رسول الله المنذر وانا الهادي[٨].

إذن بموجب دلالة الاية والحديث يجب أن تكون اوامرهم واحكامهم موافقة تماما لاحكام الله تعالى حتى تجب لهم هذه الولاية ولا يتسنى هذا الا بعصمتهم، فهم الذين بهديهم تهتدي الناس فيكون استمرار الولاية حاصلا لم يتوقف لوجود الامام المعصوم لكل وقت وزمان وقد

(٨) الخبر ذكره القشيري واخرجه ابن جرير وابن مردويه والديلمي وابن عساكر عن ابن عباس، انظر الالوسي: روح المعاني، ج٧، ص١٠٣، والطبرسي ج١٣ص٦٣.

اشارت بعض النصوص القرآنية الى هذا الاستمرار الولائي في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٣٠] في ضوء هذه الاية الكريمة يمكن ان نستطلع الحقيقة الكامنة من بين فواصل النص لاعطاء لمحة قدسية لما قبل نزول آدم الى الارض بكل جوانبها واحداث وقاعها والمفاهيم الروحية التي ارتبطت بها وذلك تصديقا لما نقله رسول الله ﷺ في الحديث القدسي المروي عن علي بن ابي طالب عليه السلام في بيان سجود الملائكة لآدم عليه السلام ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ ﴾ وما ظهر لآدم من نور ولم تظهر له الاشباح سأل ربه عن هذا النور الذي اضاء جوانبه فقال الله عز وجل ((انوار واشباح نقلتهم من اشرف بقاع العرش الى ظهرك ولذلك امرت الملائكة بالسجود لك اذ كنت وعاءاً لتلك الاشباح))[٩].

هنا السجود في هذا المقام مجرد سجود تحية وتعارف فلا دليل على المنع من ذلك، لكون الذوق الديني يقضي باختصاص هذا الفعل به تعالى، والمنع عن استعماله في غير مورده تعالى، وان لم يقصد به إلا التحية والتكريم فقط اذ الممنوع شرعا وعقلا ليس الا اعطاء الربوبية لغيره تعالى[١٠].

ان مثل هذه الأية المتقدمة ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ والأيات التي بعدها تحكي قصة نزول الأنسان في الأرض وجعله خليفة فيها، وهذه الخلافة لها أبعادها الأجتماعية وتحمل خصائص وأثار جليلة وعظيمة والتي عنوانها القرآن الكريم بالاستخلاف ولدى تحليل هذا الأستخلاف نجد أنه ذو أربعة أطراف، الأول العلاقة المعنوية: التي سماها القرآن الكريم بالاستخلاف، والثاني المستخلف

(٩) الفيض الكاشاني: تفسير الصافي، ج١، ص١١٥.
(١٠) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص١٢٣.

وهو الله تعالى إذ لا استخلاف بدون مستخلف، والثالث: المستخلف وهو الإنسان وأخوه الأنسان، أي الإنسانية ككل الجماعة البشرية، والرابع المستخلف عليه: وهو الأرض وما عليها ومن عليها.

فالعلاقة الأحتماعية ضمن صيغة الأستخلاف -كما يراها الشهيد الصدر-تكون ذات طرق أربعة، وهذه الصيغة ترتبط بوجهة نظر معينة نحو الحياة، والكون بوجهة نظر قائلةٍ بأنه لاسيد ولامالك ولا إله للكون والحياة إلا الله سبحانه وتعالى وأن دور الانسان في ممارسة حياته إنما هو دور الأستخلاف والأستئمان، وأيّ علاقة تنشأ بين الإنسان والطبيعة فهي في جوهرها ليست علاقة مالك بمملوك، وانما هي علاقة أمين على أمانة أستؤمن عليها، وأي علاقة تنشأ بين الإنسان واخيه الانسان -مهما كان المركز الاجتماعي لهذا أوذاك -فهي علاقة استخلاف وتفاعل بقدر ما يكون هذا الانسان أو ذاك مؤدياً لواجب هذه الخلافة، وليست علاقة سيادة أو ألوهية أو مالكية[11].

مثل هذا التصور العام للنص في الاستخلاف -((إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)) لابد من العمل على تفعيله بحسب موازين التأويل والتفسير بلا شطط كي نطلع على أبعاد قرآنية قد غفل عن قراءتها في العمق بعض المفسرين او لم تدركهم الهداية الايمانية التي هي محور الاهتداء في التأويل والتفسير القرآني، فمن المسوغ للعمل تفعيل النص القرآني ودلالته على الحدث المتضمن لمعناه، واظهاره للدراسات الموضوعية التي تبحث عن واقع الولاية بمفهومها السياسي المتمثل بالامامة، وهي اول نظرية سياسية اطلقها القرآن كمكون تشريعي لترتبط بأوثق الارتباط بالواقع الاجتماعي ومن الامثلة القرآنية على ذلك قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[سورة البقرة: ١٢٤].

(١١) السيد محمد باقر الصدر: المدرسة القرانية/ ص١٠٨.

وقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾[سورة الانبياء: ٧٣].

وقوله تعالى ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [سورة القصص: ٥].

وقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ﴾ [سورة السجدة: ٢٤].

وقوله تعالى في الدعاء ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[سورة الفرقان: ٧٤].

هذه الايات الكريمة الخمس كلها تشير الى ولاية الامامة المرتبطة بالفكار الديني اكثر من الافكار الاخرى ومن خصائصها انها تشير الى القيادة والمرجعية التي تقود الامة الى ما فيه الصواب والمرتبط بالله تعالى، وعندما نستطلع القرآن نجد ان حقيقة الامامة استكملت ادوارها في التشريع في هذه الايات الخمس حيث اقتضت حكمة الله تعالى ان يحمل الانسان مسؤولية الخلافة يوم اذ جعله الله خليفة في الارض لتتضح الغاية من وجوده عليها على أن يرتبط بعلاقة تكاملية فيها، فتكون مهمته الاولى بحسب خلافته ان يقوم بعمارة الارض واصلاح ما فسد منها، وهي سنة جرت من بعده على كل نبي او امام او مصلح استخلف ان يقوم في عمارة الارض وسياسة الناس[١٢].

اما المهمة الثانية: فتكتمل فيها العلاقة بين طرفي الاستخلاف، وهما الحكم، والعدل: الحكم هو سياسة الناس، والعدل، اعطاء النصفة بينهم وكل غرض من هذه الاغراض يكمل الاخر، وبذلك تظهر الحقيقة ويتم الاستخلاف في الارض ويسمى المستخلف خليفة لانه يخلف الله في ارضه لاقامة حدوده وتنفيذ ما يقتضيه عدله تعالى.

والمهمة الثالثة: دعاؤهم الذي تنتظم به العلاقة مع الله تعالى بواسطة القيم الروحية التي يتمتعون بها فجاء قوله تعالى ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ مطابقا لسيرتهم قال ابن عباس اجعلنا ائمة هدى: والمعنى انهم سألوا الله ان

(١٢) الالوسي: روح المعاني، ج١ ص٢٢٢.

يبلغهم في الطاعات المبلغ الذي يشار اليهم فيه ويقتدى بهم[١٣] وفي رواية عن الامام الصادقعليه السلام هم اهل البيتعليهم السلام وهناك عدة روايات تتضمن دعاءهم وقراءتهمعليهم السلام وجعل لنا من المتقين اماما[١٤] أي طلبوا العزّ بالتقوى لا بالدنيا[١٥] فالامامة في المفهوم القرآني لا تكن الا لمن استجمعت فيه مراتب الاستعداد ولا يعلم هذه المراتب احد الا الله تعالى، وهي غير مقصورة على شخص أدمعليه السلام وانما يشاركه فيها بنوه، بعدما يدخل الانسان طور المعرفة بحيث لا تتم الحياة في الارض ويستمر البقاء لها الا بالاجتماع ومن طبيعة الاجتماع انه لا يخلو من فساد في الطبع وسفك الدماء[١٦]

وهو ما ظهر من احتجاج الملائكة. الى هنا لم تستكمل الاية (إني جاعل في الأرض خليفة) اغراضها الا عندما بدأ الله تعالى في اخبار الملائكة بهذا الاستخلاف غير المتوقع لهم، وهو اخبار مشورة وان كان بعلمه وحكمته البالغة غنيا عن ابداء الرأي للمشورة، ولكن اقتضتها بلاغة الاسلوب الضمني، وهو فن من فنون السياقات اللفظية القرآنية لتعطي درسا في المشورة قبل الاقدام[١٧] على اخذ القرار في مهمة تقتضيها الظواهر او التغيرات الحادثة.

وهنا احتجت الملائكة على هذا الاستخلاف ﴿ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ ارادوا بذلك استكشاف ما خفي عليهم من وجه حكمته تعالى، كأنهم قالوا: ((الهنا –انت الحكيم –الذي لا يفعل السفه، فما وجه الحكمة في جعل المخلوق الارضي خليفة فيها، وهو مصحوب لقوة شهوية شأنها

(١٣) الخازن: لباب التأويل في معاني التنزيل، ج٤، ص٤٧٩، والبغوي علي الخازن، الصفحة نفسها.
(١٤) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١٥، ص٢٤٨ والفيض الكاشاني: تفسير الصافي، ج٤، ص٢٧.
(١٥) الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٧، ص١٨١.
(١٦) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص١١٧.
(١٧) الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج٢، ص١٦٨.

الشرور والفساد ولقوة غضبية شأنها الاهلاك وسفك الدماء فان النفس اذا انقادت لاحدهما سلكت بها مسالك الفساد والجور والظلم))[١٨].

كأن الثابت في علمهم انهم هم المعصومون وحدهم، وكل مخلوق سواهم ليسوا على صفتهم، فهم اذن اولى بالاستخلاف في الارض من غيرهم لكونهم في طاعته دائماً، فاجابهم الله تعالى ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ أي اعلم من المصالح في هذا الاستخلاف ما خفي عليكم[١٩].

اذن ما هو هذا الامر الذي لم تطلع عليه الملائكة والذي قد خفي عنهم في هذا المستخلف في الارض؟. ان الله سبحانه علمه اسماءا ولم يعلمهم ولو علمهم اياها لكانوا مثل آدم او اشرف منه[٢٠] لقوله تعالى ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٣١] بأنكم احقا بالخلافة من آدم وان جميعكم تسبحون وتقدسون: ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [سورة البقرة: ٣٢].

وبناء على هذا العرض الحواري في الايات، لا شك في ان تعريفا مثل هذا يبدو عاما او لايساعد على الاقتراب من التساءل في الايات حتى يفهم ما المراد من هذه الاسماء التي اودعها الله في آدم ولم يعلم بها احد الا هو تعالى؟. الامر الذي عجزت عنه الملائكة لعدم احاطتهم بمراتب الغيب؟[٢١].

اذن ظاهر الامر كما يفيد منطوق الاية ان الاسماء امور غائبة عن العالم السماوي والارضي خارج محيط الكون، وهي جزء من مبدأ ثبات السنن الالهية التي يجري عليها نظام العالم، بل المراد بالاسماء حقائق المخلوقات الكائنة في عالم الجبروت المسمّاة عند طائفة، بالكلمات وعند قوم بالاسماء وعند

(١٨) الزمخشري: الكاشف، ج٢، ص١٢٤.
(١٩) الزمخشري: الكاشف، ج٢، ص١٢٥.
(٢٠) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص١١٧.
(٢١) السبزواري: مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ج١، ص١٥٧.

اخرين بالعقول[٢٢] ولكن هنا اسئلة متداخلة تفرضها معاني الايات تحتاج الى جواب، ما هي حقيقة تلك الاسماء، وما هي معرفة ذواتها وخواص صفاتها؟. وهل كان لهذه الاسماء وجود عيني، وهي مع ذلك مستورة تحت سَتْرغيبِ السماوات والارض؟. اذن لماذا اودعها الله في آدمﷺ هل لكونه في مقام الابوة والبنوة، من اسماء ذريته[٢٣] حتى يصيروا أصلا لها؟.

كل ذلك اختلف فيه المفسرون، ولكن بعضهم ألمح لها عن بعد في ضوء الاهتداء القرآني[٢٤] فتحصل عنده ان هؤلاء الذين عرضهم الله تعالى على الملائكة موجودات عالية محفوظة عند الله تعالى، محجوبة بحجب الغيب، انزل الله سبحانه كل اسم في العالم بخيرها وبركاتها واشتق كل ما في السماوات والارض من نورها وبهائها، وانهم على كثرتهم وتعددهم لا يتعددون تعدد الافراد ولا يتفاوتون تفاوت الاشخاص، وانما يدور الامر هناك مدار المراتب والدرجات ونزول الاسم من عند هؤلاء انما هو بهذا القسم من النزول[٢٥].

وقد يؤكد هذا الطرح وهذه القراءة المتبصرة للنص القرآني وبما جاء في المعاني عن الامام الصادقﷺ ان الله تبارك وتعالى علّم آدم اسماء حججه كلها ثم عرضهم وهم ارواح عل الملائكة فقال ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ بانكم احق بالخلافة في الارض -لتسبيحكم وتقديسكم -من آدم فقالوا ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ قال الله تبارك وتعالى ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ وقفوا على عظيم منزلتهم عند الله -عز وجل -فعلموا انهم أحق بان يكونوا خلفاء الله في ارضه وحججه على بريته، ثم غيبهم عن

(٢٢) الفيض الكاشاني: تفسير الصافي، ج١، ص١١١.
(٢٣) الجصاص: احكام القرآن، ج١، ص٣١.
(٢٤) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص١١٧.
(٢٥) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص١١٨.

ابصارهم واستعبدهم بولايتهم ومحبتهم وقال لهم ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[٢٦].

وقد يلاحظ من حديث الامام عليه السلام تنقله في النص القرآني فيشعرك كأنه ترجمة لكل مقطع من مقاطع النص يوزع معاني التأويل بينها بأسلوب حديثي حتى تكتمل الصورة ويتضح الغرض من النص المشعر بالمجانسة بين الحديث والقرآن لتكون مدعاة للتأمل فتبرز الصلة الوثيقة بين تلك الاسماء وخلافة آدم عليه السلام في الارض، وسبب ثان يضاف الى فهم موقع الولاية من خلافة آدم عليه السلام، كل ذلك يتضح من خلال الحديث ومقاطع النص.

اذن ليس هذا هو الحديث الوحيد الذي يؤدي هذا المعنى الغيبي وانما هناك احاديث عديدة في المقام قول النبي صلى الله عليه وآله ((كنت نبيا وآدم بين الماء والطين))[٢٧]

وقوله صلى الله عليه وآله ((ان الله خلقني من نور وخلق ذلك النور قبل آدم بالفي الف سنة))[٢٨] والاخبار متضافرة في هذا المعنى، وهكذا تتكشف للنظر الثاقب في اعماق معاني القرآن الكريم والاحاديث النبوية آفاق من الدلائل والاسرار يتحقق بها الاعجاز قد تكون غائبة عن الاذهان، وقد حذر الطباطبائي قدس سره من رمي امثال هذه الاحاديث الشريفة المأثورة عن معادن العلم ومنابع الحكمة بانها من اختلاق الغلاة واوهام المتصوفة، فللخلقة اسرار، وكلما تقدم العلم اتضحت بعض مجاهيل عالم الطبيعة، فما ظنك بما وراءها؟[٢٩].

فكرة التمكين في الاستخلاف الموعود:

في النص القرآني مواقف واعتبارات دينية وعقائدية من الممكن توضيحها في ضوء قوله تعالى ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ

(٢٦) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص١٢١.
(٢٧) المجلسي: بحار الانوار، ج٧، ص٥٩٢.
(٢٨) المجلسي: بحار الانوار، ج٧، ص١٩٢.
(٢٩) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص١٢١ والبيان في الموافقة بين الحديث والقرآن، ج١، ص١٠٦.

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾

[سورة النور: ٥٥].

ليس المهم في بحث هذا النص التعرض الى تفاصيل مفرداته اللغوية وحيثيات المعنى او في سيرورة تكوين الرؤى في الاختلاف المذهبي عند المفسرين كل ذلك لم يكن رائدا في البحث وأن كان من لوازمه وانما كي تتضح رؤية واضحة لاي معالجة فكرية ذات بعد عقائدي، لذا ينبغي بالضرورة ان يتضمن البحث محددات في المنهج منها.

اولا: ان البحث القرآني بصورة عامة لا يقبل المواجهة ذات الطبيعة المذهبية مع الاخر، كما نراها عند بعض المفسرين، وانما يجب ان تتحدد بالبحث في المواقف الايجابية من خلال مفردات اللغة او منهجية الفكر الذي في ضوئه تتحدد المفاهيم الظاهرة في المعاني التي يراد بحثها في النص.

ثانيا: الاعتراف مبدئيا باختلاف الرأي العلمي في بحث فكرة التمكين وتقييم الاراء الواردة فيها بحيث لا تقبل أي تساهل للطعن، وانما المناقشة في فضاءات نصوصها وابراز ما هو بخلافها في معرض قصد الايضاح لا التجريح.

ثالثا: ان مثل هذا البحث النظري المتكامل في ابعاده المنهجية وصلته بما يبحث ويتم من مستحدثات في التفسير من عطاءات علمية تتم معالجتها على رؤى محايدة تنطلق من التسليم جدلا بحقيقة البحث المنهجي وتقييمه اعتمادا على النصوص الوارد فيه.

والذي يظهر من سياق الاية المباركة-وكما يتضح من اقوال المفسرين-ان الوعد لبعض الامة لا لجميعها بالاستخلاف في الارض مع التمكين المطلق الذي يقتضي وراثة الارض والظهور على الامم جميعها كان وعدا منه تعالى الى الذين امنوا والذين اصطفاهم الله امتدادا لولايته واستخلفهم في الارض كما استخلف

من قبلهم ليجعلهم ورثة الانبياء والصالحين من عباده، ويمكنهم من اقامة حكم الله العادل الذي ارتضاه لهم كدعاة ومبلغين لشريعته لتحقيق مقاصدها العليا. ومثل هذا المجتمع الطيب الطاهر على ما له من صفات الفضيلة والقدسية لم يتحقق ولم ينعقد منذ ان بُعث النبي ﷺ الى يومنا هذا، وان اريد له التطبيق بما له من ابعاد متماسكة غير متصارعة فلينطبق على زمن ظهور المهدي عليه السلام على ما ورد من صفاته في الاخبار المتواترة عن النبي ﷺ وائمة أهل البيت عليهم السلام[٣٠].

في هذا المناخ الغيبي الذي تركت اثره الاية في اقوال المفسرين الاوائل ورددت صداه كتب التفسير بشيء من الحداثة والرؤى المتوافقة مع متغيرات البحث العلمي الذي ينطلق من التسليم جدلا بحقيقة ذلك المجتمع الموعود، وقد وقع الخلاف بينهم في امرين:

الاول: في اصل فكرة الاستخلاف.

الثاني: تمكين المستخلفين في الارض.

أصل فكرة الاستخلاف:

الخلافة: النيابة عن الغير اما لغيبة المنوب عنه واما لموته واما لعجزه، واما لتشريف المستخلف، وعلى هذه الوجه الاخير استخلف الله اولياءه في الارض[٣١] قال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والمراد بهذا الاستخلاف في الارض اعطاء الخلافة الالهية كما ورد في القرآن ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهم خلفاء الله وانبيائه واوليائه[٣٢] استخلفهم في الارض ليجعلهم خلفاء متصرفين في الارض تصرف الملوك في ممالكهم[٣٣] تارة بسبب البنوة واخرى بسبب الامامة والخلافة حاصلة في الصورتين[٣٤] وفي الاية -كما جاء في كتب التفسير -ثلاثة اراء في

(٣٠) الطوسي: تلخيص الشافي، ج٣، ص١١٥.

(٣١) الراغب: المفردات، ص١٥٦.

(٣٢) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج٥، ص١٥١.

(٣٣) البيضاوي: انوار التنزيل واسرار التأويل، ص٤٧٢.

(٣٤) الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج٢٤، ص٢٥.

اصل فكرة الاستخلاف هي:

١. المراد بالاستخلاف اعطاء الخلافة الالهية كما ورد في القرآن ﴿ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ وهم آدمعليه السلام في قوله تعالى ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [سورة البقرة: ٣٠] وداوودعليه السلام في قوله تعالى ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة ص: ٢٦] وسليمانعليه السلام في قوله تعالى ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ [سورة النمل: ١٦] فهؤلاء هم المراد بقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ خلفاء الله من انبيائه واوليائه، وهو لا يخلو من بعد[٣٥].

٢. المراد بالذين استخلفوا من قبلهم: هم بنو اسرائيل لما أهلك الله فرعون وجنوده فاورثهم ارض مصر والشام ومكنهم فيها بعد الجبابرة[٣٦] كما قال تعالى ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ ﴾ [سورة القصص: ٦].

هذا المجتمع الاسرائيلي المنعقد بعد نجاتهم من فرعون وجنوده لم يَصْفُ من الكفر والنفاق والفسق فلا وجه للتشبيه في استخلاف الذين امنوا وعملوا الصالحات باستخلافهم، وفيهم الكافر والمنافق والطالح والصالح[٣٧].

٣. ان الاستخلاف -هنا -ليس هو الامارة والخلافة، بل المعنى هو إبقاؤهم في اثر من مضى من القرون، وجعلهم عوضا منهم وخلفا، كما قال ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة فاطر: ٣٩] وقال ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة الاعراف: ١٢٩] وقال ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ ﴾ [سورة

(٣٥) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١٥، ص١٥١.

(٣٦) الطبرسي: مجمع البيان في تفسير البيان، ج٧، ص١٥٢ وتفسير البيضاوي، ص٧٤٢.

(٣٧) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١٥، ص١٥٢.

الانعام: ١٣٣] أي جعل كل واحد منهما خلف صاحبه[٣٨] يرث الارض بتسليط قوم عليها بعد قوم كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الاعراف: ١٢٨] فالمراد بالذين من قبلهم المؤمنون من امم الانبياء الماضين الذين اهلك الله الكافرين والفاسقين منهم ونجى المخلص من مؤمنيهم كقوم نوح وهود وصالح وشعيب، كما اخبر عن جمعهم في قوله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [سورة ابراهيم: ١٣ -١٤] فهؤلاء الذين اخلصوا الله فنجاهم فعقدوا مجتمعا صالحا وعاشوا فيه حتى طال عليهم الامد فقست قلوبهم[٣٩].

وبموجب هذا الوصف القرآني لتلك الاقوام الصالحة والتي ورثت الارض انه ليس ثمة بأس من تشبيه المجتمع الصالح الموعود لما فيه من صفات الهية خاصة ببعض الامة من دون ان يختص به اشخاص منهم كما كان ذلك في الذين من قبلهم.

تمكين المستخلفين في الارض:

قد تكون فكرة التمكين في الاستخلاف عند بعض الفسرين من الدلائل الغيبية، اذا ما جاء عن طريق الوحي محمولا على قرينة ((الوعد)) لانجاز وعده تعالى في استخلاف طائفة معينة ليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وهو الاسلام وتبديل خوفهم امنا يعبدون الله عبادة خالصة لا يداخلها شرك جلي او خفي حتى يتمكن الدين من الظهور في مجتمع ليس فيه نفاق، ولا استهانة بما يامر به من عدل ولم تحل فيه الاغراءات محل الواقع حتى يصبح قادرا

(٣٨) الطوسي: تفسير التبيان، ج٧، ص٤٥٦.

(٣٩) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج٥، ص١٥١.

على تطبيق الشريعة راضيا بالاحتكام اليها.

وقد كثر الخلاف بين المفسرين في الاية قوله تعالى ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ وكان اوضح ما جاء عنهم هو:

١. انها واردة في اصحاب النبي ﷺ حيث هو واصحابه مكثوا في مكة عشر سنين خائفين ثم هاجروا الى المدينة وكانوا يصبحون ويمسون في السلاح حتى انجز الله تعالى وعده فاظهرهم عل كل بلاد الشرق[٤٠].

٢. استدل البعض على صحة خلافة الاربعة وذلك لانه تعالى وعد الذين امنوا وعملوا الصالحات من الحاضرين في زمان النبي ﷺ وهو المراد بقوله: ليستخلفنهم في الارض، ومعلوم ان المراد بهذا الوعد بعد الرسول، والمراد بهذا الاستخلاف الامامة فكان كل منهم خليفة حقا باستخلاف الله تعالى اياه حسبما وعد -جل وعلا -، ويلزم عموم الاستخلاف لجميع الحاضرين المخاطبين[٤١].

٣. جاءت الاية عامة لامة محمد ﷺ والمراد باستخلافهم وتمكين دينهم وتبديل خوفهم امنا توريثهم الارض كما اورثها الله الامم الذين كانوا قبلهم او استخلاف الخلفاء بعد النبي ﷺ على اختلاف التقدير- وتمكين الاسلام وانهزام اعداء الدين وقد انجز الله وعده بما نصر الاسلام والمسلمين بعد الرحلة ففتحوا الامصار وسخروا الاقطار[٤٢].

٤. انها في المهدي الموعود عليه السلام الذي

(٤٠) البيضاوي: انوار التنزيل واسرار التأويل ص٤٧٣.

(٤١) الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج٢٤، ص٢٥، والالوسي: روح المعاني، ج٩، ص٣٩٥.

(٤٢) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن ج١٥، ص١٥٤.

تواترت الاخبار على انه سيظهر فيملأ الارض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا فعلى هذا يكون المراد بالذين امنوا وعملوا الصالحات النبي واهل بيته عليهم الصلاة والسلام، وتضمنت الاية البشارة لهم بالاستخلاف والتمكين في البلاد وارتفاع الخوف عنهم عند قيام المهدي[٤٣].

وقد يلزم هذه الاقوال مايلي:

اولا: لم يخل مجتمع المسلمين بعد الرسول من لوثة النفاق وعدم القدرة على العدل والتنافس على النفوذ والتنازع بين المسلمين انفسهم، اما استخلاف الله لهم -كما في الرازي -لم يقع منه تعالى للخلفاء الثلاثة لا في آية ولارواية والاية تنص على الاستخلاف.

ثانيا: عدم تمكين الدين من الانتشار في جميع اقطار الارض حتى الوقت الحاضر لان الكثير من بلدان العالم لم يسدها الاسلام في ايامهم ولا من بعدهم ولم يتمكن الدين من الانتشار في جميع اقطار الارض والاية تنص على التمكين ((ليمكن لهم دينهم)).

ثالثا: بناء على هذه الاراء تصح امامة وولاية امراء الدولتين: الاموية والعباسية ومن اتبعهما[٤٤] وهذا لم يصح لان الاية مشروطة بالايمان[٤٥] ((وعد الله الذين امنوا)).

وحيث دلالة الاية ظاهرة في صفة المؤمنين الذين يعملون الصالحات فلا قرينة لفظية او عقلية تدل على كونهم هم الصحابة او النبي صلى الله عليه وآله او ائمة اهل البيت عليهم السلام ولا على ان المراد بالذين امنوا منكم وعملوا الصالحات جميع الامة، وانما صرف الوعد الى طائفة خاصة منهم تشريفا لهم او لمزيد العناية بهم وهو ما اكدته رواية العياشي باسناده عن علي بن الحسين عليه السلام انه قرأ الاية وقال: هم - والله -شيعتنا اهل البيت يفعل الله ذلك بهم على يدي رجل منا وهو مهدي هذه الامة، وهو الذي قال

(٤٣) الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٧، ص١٥٢.

(٤٤) الطوسي: تفسير التبيان، ج٧، ص٤٥٧.

(٤٥) الطوسي: تخليص الشافي، ج٣، ص١١٢.

فيه رسول الله ﷺ: ((لو لم يبق من الدنيا الا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يلي رجل من عترتي يملأ الارض عدلا وقسطا كما ملئت ظلما وجورا))(٤٦).

ولكن الاستخلاف -هنا -في نظر الشيخ الطوسي -ليس هو الامارة والخلافة -بل المعنى هو بقاؤهم في اثر من مضى من القرون وجعلهم عوضا منهم وخلفا كما مر(٤٧) لقوله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة فاطر: ٣٩] وقال تعالى ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الاعراف: ١٢٩] وقال ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِف مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ [سورة الانعام: ١٣٣].

وهذا الرأي ذهب اليه -صاحب الميزان -وهو من بين المفسرين المعاصرين الذين اشبعوا الاية بحثا واستدلالا مميزا قال: ان الله سبحانه يعد الذين امنوا منهم وعملوا الصالحات ان سيجعل لهم مجتمعا صالحا خالصاً من وصمة الكفر والنفاق والفسق يرث الارض لا يحكم في عقائد افراده عامة ولا اعمالهم الا الدين الحق يعيشون امنين من غير خوف من عدو داخل او خارج احرارا من كيد الكائدين وظلم الظالمين وتحكم المتحكمين.

وهذا المجتمع الطيب الطاهر -على ما له من صفات الفضيلة والقداسة -لم يتحقق ولم ينعقد منذ بعث النبي ﷺ الى يومنا هذا، وان انطبق فلينطبق على زمن ظهور المهدي عليه السلام على ما ورد من صفته في الاخبار المتواترة عن النبي ﷺ وائمة اهل البيت عليهم السلام على ان يكون الخطاب للمجتمع الصالح لا له عليه السلام وحده(٤٨).

والسؤال الذي يعترض هذا الطرح، اذاً ما معنى الوعد في الاية ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وليس المهدي عليه السلام احد المخاطبين حين النزول، ولا واحد من اهل زمان

(٤٦) الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٧، ص١٥٢.
(٤٧) الطوسي: تفسير التبيان، ج٧، ص٤٥٦.
(٤٨) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١٥، ص١٥٦.

ظهوره بينهم؟.

لذا نجد -صاحب الميزان -وجه تأويل الاية توجيها حسنا قال: هناك خلط بين الخطابات الفردية والاجتماعية، أي الخطاب المتوجه الى اشخاص القوم بما هم اشخاص باعيانهم، والخطاب المتوجه اليهم بما هم قوم على نعت كذا، فالاول لا يتعدى الى غير اشخاصهم ولا ما تضمنه من وعد او وعيد او غير ذلك يسري الى غيرهم، والثاني يتعدى الى كل من اتصف بما ذكر فيه من الوصف، ويسري اليه ما تضمنه من حكم، وخطاب الاية من قبيل الثاني على ما تقدم ثم اورد على هذا امثلة من القرآن الكريم قوله تعالى ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [سورة الاسراء: ٧] فان الموعودين لم يعيشوا الى زمن انجاز هذا الوعد، فوعد الصالحين من المؤمنين بعنوان انهم مؤمنين صالحين بوعد لا يدركه اشخاص زمان النزول باعيانهم ولما يوجد اشخاص المجتمع الذي يدرك انجاز الوعد مما لا ضير فيه البتة[٤٩].

والذي يعطيه سياق الاية من الوعد باستخلاف، الذين امنوا منهم وعملوا الصالحات يرثون الارض، كما ورث الذين من قبلهم من الامم الماضية وانبساط الامن والسلام على مجتمعهم بحيث لا يخافون فيه عدوا لا في داخل مجتمعهم ولا في خارجه ومعنى الاية لا ينطبق الا على المجتمع الموعود الذي سينعقد بظهور المهدي عليه السلام بحكم كونه امتدادا لولاية الامامة بعد الرسول صلى الله عليه وآله في الدين والدعوة الى الاسلام، ليس على مستوى الامة وانما على مستوى العالم، لانه يملأ الارض قسطا وعدلا، وبهذا العدل تتحرر جميع شعوب العالم وينبسط الاسلام فيها عقيدة وشريعة لقول رسول الله صلى الله عليه وآله ((لا يبقى على الارض بيت مدر ولا بر الا ادخله الله تعالى كلمة الاسلام يعز عزيز او ذل ذليل اما ان يعزهم الله فيجعلهم من اهلها واما ان يذلهم فيدينون لها)) وهو

(٤٩) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١٥، ص١٥٦.

مصداق قوله ﷺ زويت لي الارض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك امتي ما زوي منها[٥٠].

ولغة مفردات الحديث اوردها ((ابن سلام))، سيبلغ ملك امتي مشارق الارض ومغاربها، قال ابو عبيد: سمعت ابا عبيدة ((معمر بن المثنى التيمي)) يقول ((زويت جمعت، ويقال: انزوى القوم بعضهم الى بعض، اذا تدانوا وتضاموا، ونزوت الجلدة من النار اذا انقبضت واجتمعت[٥١].

فيكون معنى الحديث -بما فيه من لغة -سيبلغ ملك امتى مشارق الارض ومغاربها، أي جميع مساحات الارض متداخلة متدانية ينضم بعضها لبعض ولم يبق منها شيء.

وهذا لم يحدث لا في الماضي ولا الحاضر، وانما امتلاك الامة لجميع دول العالم وتوحيدها تحت راية الاسلام الا في ظل ولاية الامام المهدي عليه السلام وهذا الحديث من الدلالات الغيبية التي تحدث في زمان الظهور.

وهناك احاديث مروية في هذا المقام جاءت عن النبي ﷺ وائمة اهل البيت عليهم السلام من النبؤات التي ستقع في عصر ظهور المهدي، وهي من علاماته ومؤشراتها في عصرنا الحاضر، ومثل هذه المعطيات الحدثية تساعد على ترسيخ الايمان القائم على دعائم الحق والعدل.

روي المجلسي المتوفي سنة ١١١٠هـ-١٦٩٨م بسنده عن ابن مسكان قال: سمعت ابا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: ((ان المؤمنين في زمان القائم وهو بالشرق ليرى اخاه الذي في الغرب، وكذا الذي في المغرب يرى اخاه الذي في المشرق))[٥٢].

وبسند ايضا عن المفضل بن عمر انه سال الصادق عليه السلام -في رواية طويلة- قال عليه السلام: لا تراه عين في وقت ظهوره الا رأته كل عين، فمن قال لكم غير هذا

(٥٠) ابن سلام: غريب الحديث، ج١، ص٣-٤.
(٥١) ابن سلام: غريب الحديث، ج١، ص٣-٤.
(٥٢) المجلسي: بحار الانوار، م٢، ص٣٩١، وعبد الله شبر حق اليقين، ج١، ص٣١٤، والصافي: منتخب الاثر، ص٤٨٣.

فكذبوه[٥٣].

وروي الكليني (المتوفي سنة ٣٢٨هـ-٩٣٩م) بسنده الى ابي ربيع الشامي سمعت ابا عبد الله عليه السلام يقول: ((ان قائمنا اذا قام مدّ الله لشيعتنا في اسماعهم وابصارهم حتى لا يكون بينهم وبين القائم بريد، يكلمهم فيسمعون وينظرون اليه وهو في مكانه[٥٤].

ولاية الامامة الروحية في القرآن:

من المعلوم ان الدعوة النبوية استمدت تشريعها على الصعيد الديني او الاخلاقي من القرآن الكريم، و قد اندرج مفهومها الروحي ضمن السيرورة الابراهيمية التوحيدية، فكانت المثل الاعلى للمسلمين في التوحيد لقوله تعالى ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة النساء: ١٣٠ -١٣١].

وقد سمي الله تعالى الرغبة عن ملة ابراهيم -وهو الظلم- سفها وقابلها بالاصطفاء، وفسر الاصطفاء بالاسلام، كما يظهر بالتدّبر في قوله ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ ﴾ ثم جعل الاسلام والتقوى واحدا او في مجرى واحد[٥٥] في قوله ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢].

ومن المعلوم ايضا ان الاسلام بعد تكامل عقيدة التوحيد القائمة على ملة إبراهيم اهتم بالشؤون العملية والتنظيمية ذات الطابع السياسي، فكانت الامامة هي النسيج القرآني في سياق نبوة ابراهيم عليه السلام فهي الصورة الروحية المقدسة التي يطرحها القرآن الكريم مثلا يحتذا به لوجود القواسم المشتركة بين الديانتين الابراهيمية والمحمدية فهما نتاج وحي واحد قال تعالى ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة البقرة: ١٢٤].

(٥٣) المجلسي: بحار الانوار، م٥٣، ص٦.
(٥٤) الكليني: روضة الكافي، ص٢٠١ والمجلسي: بحار الانوار، ج٢٥، ص٣٣٦.
(٥٥) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٢٧٨.

ليس ما تحتويه آيات القرآن من مضمون تشريعي لا بوصفها مجرد قرار تشريعي بقدر ما يتجلى في قدرتها على النفاذ الى نظام تأسيسي يكفل للامة رؤية قائمة على الهداية الايصالية المتمثلة في ((ولاية الامامة)) التي يشكل تشريعها امتدادا لامامة ابراهيم عليه السلام التي جاء معناها من خلال توظيف القرآن لها بمعنى الهداية الايصالية ليتحقق فيها العدل وتستقيم معها الحياة الكريمة.

لذا نجد القرآن الكريم انه كلما تعرض لمعنى الامامة تعرض معها للهداية قوله تعالى في قصص ابراهيم عليه السلام ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾[سورة الانبياء: ٧٢-٧٣] وقال سبحانه ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[سورة السجدة: ٢٤] فوصفها بالهداية وصفاً تعريفاً، ثم قيدها بالامر، فبين ان الامامة ليست مطلق الهداية، بل هي الهداية التي تقع بامر الله، هذا الامر هو الذي بين حقيقته في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [سورة يس: ٨٢-٨٣].

اذن الامام، بحسب نصوص القرآن، هاد يهدي بأمر ملكوتي يصاحبه في مسيرته الاصلاحية، فالامامة بحسب الباطن نحو ولاية الناس في اعمالهم، وهدايتها ايصالها اياهم الى المطلوب بامر الله دون مجرد ارائه الطريق الذي هو شأن النبي والرسول وكل مؤمن يهدي الى الله سبحانه بالنصح والموعظة الحسنة[٥٦] لقوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [سورة ابراهيم: ٤].

اذن الامام في المعنى القرآني يجب ان يكون ذا يقين، أي مكشوفا له عالم الملكوت، متحققاً بكلمات من الله سبحانه[٥٧] وهذه الكشوفات خصائص

(٥٦) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٢٧٢.

(٥٧) الطباطبائي: تفسير البيان في الموافقة الحديث والقران، ج١، ص١٩٠.

ذاتية في شخص الامام لا ينالها الا من كان سعيد الذات في نفسه، اذ الذي غيره ربما تلبّس ذاته بالظلم والشقاء فانما سعادته بهداية من غيره وقد قال تعالى ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾[سورة يونس: ٣٥].

وقد قوبل في الاية بين الهادي الى الحق وبين غير المهتدي الا بغيره -أعني المهتدي بغيره- وهذه المقابلة تقتضي ان يكون الهادي الى الحق مهتديا بنفسه، وان المهتدي بغيره لا يكون هاديا الى الحق البتة[٥٨] ومثل هذه الهداية المشروطة لا تخرج عن سيرة الانبياء، ومن تابعهم على هذه السيرة من أئمة الهدى لقوله تعالى لنبيه ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [سورة الرعد: ٧].

ودلالة الاية على ان الارض لا تخلو من هاد يهدي الناس الى الحق اما نبي منذر، واما هاد غيره يهدي بامر الله، والهادي الداعي الى الحق وروي عن ابي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام ان الهادي هو امام كل عصر، معصوم يؤمن عليه الغلط وتعمد الباطل[٥٩].

وروى الطبري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: نزلت الاية ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ وضع رسول الله يده على صدره، وقال: انا المنذر ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ وأومأ بيده الى منكب علي عليه السلام فقال: انت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي[٦٠].

فالامامة بموجب هذه النصوص القرآنية والنبوية تماثل النبوة بالهداية الى الحق، فاذا كانت هداية النبي لا تتم الا بوحي من غير ان يكون مكتسبا من الغير بتعاليم او ارشادات ونحوها، فموهبة النبوة تستلزم موهبة الامامة والارتباط بين الموهبتين ليس ارتباطا عارضا وانما مرتهن بمفهوم قدسي يهدي بأمره تعالى فهي ليست مجرد نظرية واستدلال فحسب وانما هي عقيدة وايمان لانها ركن من اركان الدين.

(٥٨) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٢٧٤.

(٥٩) الطوسي: تفسير التبيان، ج٦، ص٢٢٣.
(٦٠) الالوسي: روح المعاني، ج٧، ص١٠٣ والطبري، ج١٣، ص٦٣ والطوسي، ج٦، ص٢٢٣.

مشروعية ولاية الامامة:

ولاية الامامة نظرية قرآنية تفترض منهجا في الحكم اشار اليه اكثر المفسرين لايات الولاية التشريعية فكانت كل ابحاثهم بمعزل عن التجربة التي مرت بها الامة في الحكم، وانواع الفعاليات غير المسؤولة والمتعدية على شروط ولاية الامامة والتي غير المستحقة لها ولا متصفة بها لذا كان من بين المباحث القرآنية نموذج قابل للتطبيق ونهج يساعد على معالجة مشكلة الحكم التي تعاني منه المجتمعات الاسلامية فكان الاهتمام متفاعلا من قبل اصحاب النظريات السياسية فقط وترك النظرية القرآنية التي تفترض نظاما سليما في الحكم مبني على صحة العقيدة في ولاية الامامة حفضاً على سلامة الدين من الانحراف والتطرف، فمن النصوص القرآنية التي اوجدت اسس مشروعة الولاية قوله تعالى ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾[سورة الكهف: ٤٤].

فالولاية الثابتة لله تعالى بحكم العقل والنقل هي الولاية بمعنى مالكية التدبير وهو المعنى الساري في جميع اشتقاقاتها[٦١] كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[سورة المائدة: ٥٥] فالولاية لله تعالى وحده دون غيره وهي ولاية تكوينية وتشريعية معا لانه تعالى الخالق لكل شيء المدبر لكل امر وليس لغيره من في السماء والارض ولاية على احد غيره، ولا يمكن الخروج على هذا الاصل الولائي الا بدليل من القرآن الكريم لان كل ولاية من دون الله لابد ان يدل عليها دليل قطعي من الكتاب.

وقد ثبت بالدليل القطعي ولاية النبيﷺ حيث نص القرآن الكريم على ان الله تعالى جعل النبي وليا على المؤمنين بقوله تعالى ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [سورة الاحزاب: ٦].

وفي فصل سابق تحدثنا عن ولايتهﷺ وتوصلنا الى ان ولايته التشريعية فرض من فروض الدين كما هي ضرورة عقلية يقتضيها الدين

(٦١) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج٢٢.

مثلما هي ضرورة سياسية تتطلبها مصلحة المسلمين فلابد لها ان تشرع في القرآن لانهﷺهو المكمل لشرع الله -تعالى- والمنفذ لاحكام شريعته لذا اقترنت ولايته بولاية الله التشريعية لقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[سورة المائدة: ٥٥] ومعنى ذلك ان يتولى الله ورسوله مصالح العباد التي بها يتحقق تدبيرهم(٦٢) فيكون المعنى المراد من ولايته هو القرب المعنوي الذي يوجب نوعاً من التصرف والتدبر، لامور عامة اقتضتها مصلحة الدين وسياسة الدولة التي هي اختيار- لا يحق لاحد مخالفته- ما اختاره الله ورسوله من تشريع لكونه فوق كل اختيار، حيث لم يكن لاي اتجاه اخر غير هذا الاتجاه المشرّع بدلا لولايته التي اوجبت الشريعة طاعتها، وامرت الامة المسلمة باتباعها لان حكمها العدل وقولها الفصل لقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[سورة الاحزاب: ٣٦].

وقد جاءت الولاية في النص موحدة تعطي حكما شموليا فتكون ولاية الرسول والذين امنوا جزءا تابعا لولاية الله التشريعية كما اختص مضمون النص أيضاً بمنصب الامامة تبعا للنبوة لان الاتجاه العام لتشريع الاية بعد ما كان قائما على منصب النبوة في شخص النبيﷺ اتجه نحو الامامة لاحتياج الشريعة الى امام ينفذ احكامها ويجري حدودها ويأول ما كان غامضاً من مضامين احكامها، فكان سياق الاية يدل على وحدة ما في معنى الولاية المذكورة فيه حيث تضمّن العد في قوله ﴿ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ واسند الجميع الى قوله ((وليكم)) وظاهره كون الولاية في الجميع بمعنى واحد ويؤيد ذلك ايضا قوله في الاية التالية ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ حيث يشعر او يدل على كون المتولين جميعا حزب الله لكونهم تحت ولايته، فولاية الرسول والذين امنوا انما هو من سنخ

(٦٢) الطبرسي: مجمع لبيان في تفسير القرآن، ج٣، ص٢١١.

ولاية الله[٦٣].

وعلى هذا الاعتبار التشريعي تكون ولاية الرسول وولاية الذين امنوا بدلالة الاية المقيدة للاصل الاولى القائل: لا ولاية لاحد غيرهما على احد الا اذا ثبت له بالدليل القاطع ولاية كلية او جزئية[٦٤] فوجبت طاعة الولي على المولّى عليه وأمتثال أمر ونهيه، وإذا تصرف في شيء كان تصرفه نافذاً وقد نص القرآن على ان الله جعل النبيﷺ وليا على المؤمنين في قوله تعالى ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾ [سورة الاحزاب: ٦] وهو ما يرتبط بولاية الحكم مباشرة لقوله تعالى ﴿ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ [سورة النساء: ١٠٥].

وقد اوجب الله الولاية بعد رسوله الى اولي الامر وهم الأئمة الذي تنالهم العصمة في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [سورة النساء: ٥٩].

فأولو الامر الواجب طاعتهم في النص يجب ان تكون اوامرهم واحكامهم موافقة تماما لاحكام الله تعالى حتى تجب هذه الطاعة ولا يتسنى هذا الا بعصمتهم اذ لو وقع الخطأ منهم لوجب الانكار عليهم وذلك يضاد امر الله بالطاعة لهم[٦٥] فلابد ان يكون الاختيار له تعالى هو الذي يختار من يريد من عباده ويجعلهم ائمة لانه سبحانه وتعالى وحده القادر على معرفة الصفوة المختارة من الناس معرفة قائمة عل الجزم كما هو الحاصل في امامة ابراهيمعليه السلام ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة البقرة: ١٢٤].

ثنائية ولاية الإمامة في القرآن:

تندرج مباحث ولاية الإمامة عادة ضمن الدراسات الكلامية في العقائد الإسلامية ومجال البحث فيها أيضاً في الفقه السياسي لما لها من تداخل موضوعي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفروع

(٦٣) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن ج٦، ص١٢.

(٦٤) محمد مهدي شمس الدين: نظام الحكم والادارة في الاسلام، ص٤٣١.

(٦٥) الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٣، ص.

والأصول، عند أغلب فقهاء المسلمين ومتكلميهم فضلا عن وجودها الحاضر في القرآن والمؤثر في مثل هذه الدراسات الإسلامية.

والذي نريد توضيحه في هذا البحث أصل وجودها القرآني، المتحدث عن نوع الإمامة الشرعية وغير الشرعية وإثرهما في الواقع الاجتماعي.

وقد أوضح القرآن الكريم الصراع القائم في المجتمعات التي سبقت الإسلام وكان غرضه أظهار النماذج الإنسانية الحاكمة آنذاك، فمثل لها بمثالين أطلق على الأول: إمامة ضلال وعرفها بإمامة «فرعون» وعلى المثل الثاني إمامة هدى وعرفها بأمة «إبراهيم»عليه السلام.

هذا التقسيم للإمامة الحاكمة بعامة أراد القرآن من وراءه إشعار المسلمين بخصائص ومقومات لكل من تلك الإمامتين، ومن أظهر تلك الخصائص «إرادة الحق» الذي يتمثل دائماً في «الإمامة الشرعية» السائرة في نهج القرآن الذي هو أعدل وأكثر إفضاءً الى الحق آما الباطل الذي يتمثل في «الإمامة غير الشرعية» السائرة في ركاب الأهواء تعمل على خلاف الحق، وهو الضلال.

ومن هنا يجب أن نتذكر دائماً أن القرآن كتاب دعوة و تشريع غرضه الوصول إلى الأصلح والتمييز بين المنهجين حتى لايلتبس الأمر على السالكين دعوته إلى سبيل الحق، فالحق أحق أن يتبع، والباطل -في المصطلح القرآني- كان زهوقاً، على آن تكون حرية الإرادة والاختيار المودوعة في النفس الإنسانية حاضرة بلحاظ المصالح والمفاسد ملزمة شرعاً حتى لايقع المكلف في الجبر لمن أراداختيار أحدهما فيصح بذلك الجزاء بنوعية إتماما للحجة ليهلك منهلك على بينة ويحي من حى عن بينة. ولذلك أوضح هذا الموقف الأمام الصادقعليه السلام قال: إن الأئمة في كتاب الله عز وجل إمامان قال الله تبارك وتعال: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾[سورة الأنبياء: ٧٣] لا بأمر الناس ويقدمون أمر الله قبل أمرهم، وحكم الله قبل حكمهم،

وقال: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [سورة القصص: ٤١] يقدمون أمرهم قبل أمر الله، وحكمهم قبل حكم الله، ويأخذون بأهوائهم خلاف مافي كتاب الله عز وجل[٦٦].

هذه الصور التي كونها حديث الإمام عليه السلام عن الإمامتين، مع الصورة التي صاغها القرآن عنهما مثلتا طبيعة العلاقة المتناقضة في معنى الأمامتين ثم ترك طريق الاختيار المؤدي للأخذ بأحدهما، فهم مسئولون عما صار إليه اختيارهم.

لذا نجد الإمامة السياسية التي المح لها القرآن لاتمثل مجرد امتداداً لإمامة «إبراهيم» عليه السلام فقط على رغم من وحدة الوحي والنبوة، وإنما تمثل إمامة الآمر الواقع المعاصر لكل الأزمنة ولم يختص في زمن معين، لآن الأمام هو الحجة على الخلق بعد الرسل لقول أمير المؤمنين علي عليه السلام «اللهم لاتخلوالأرض من حجة لك على خلقك ظاهر أو خاف مغمور لئلا تبطل حججك وبيناتك»[٦٧].

وبذلك يتواصل القرآن مع الحقيقة التي يحكمها الأمر الواقع فكان على المسلمين الاحتكام إليه والالتزام بأحكامه لأن القرآن آضمن الطرق لإحقاق الحق الذي تطمئن به القلوب وترتفع به الشكوك، ومن لايخضع لقوة دليل القرآن -في قوله ﴿ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ ﴾[سورة يونس: ٣٥] خضع لمنطق القوة، وهو ما اندرجت عليه إمامة "التغلب "واستحلال حكم المسلمين بغير ما انزله الله وإلغاء كل مزاحم وان كان هو صاحب الشرعية، التي مصدرها الله تعالى لقوله ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [سورة النساء: ٥٩].

هذه الإمامة السياسية أطهرها القرآن بمطهر القيادة والمرجعية الفعلية، وقد أعطاها بعداً اجتماعيا وسياسياً تندرج فيه شمولية النص فيحصل التقابل بين صورتين متحدتين في اللفظ

(٦٦) الكليني: أصول الكافي/ ج١/ باب٨٢-ص٢٧٣.

(٦٧) الصدوق: علل الشرائع/ باب ١٥٣ - ص١٤٥.

ومفترقتين في المعنى، فتظهر الإمامة في أحدى هاتين الصورتين أما أن تكون إمامة شرعية ووجوب شرعيتها بمقتضى دليل الآية «إطاعة أولي الأمر».

أم تكون غير شرعية كإمامة «التغلب» ومن وجود هذه الثنائية يتضح المقصود من شمولية النص القرآني بهذين الصفتين وأثرهما الديني والسياسي في مسيرة الأمة وهما:

١. **الإمامة الشرعية:** التي مثل لها القرآن الكريم بإمامة إبراهيم عليه السلام المرتبطة بالحنفية وهي -دين إبراهيم- والحنف عند الراغب: هو الميال عن الضلا إلى الاستقامة، وضدها «الجنف» وهو ميال عن الاستقامة إلى الضلال[٦٨].

والحنف في لغة القرآن الميل إلى الحق، وهو من معانيه الإسلام في قوله تعالى: ﴿حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ فالإسلام يرتبط أرتباطا وثيقاً في دين إبراهيم ارتباط الفرع بأصله، فإمامة إبراهيم هي أصل إمامة الذين جاء وأمن عقبه، وهم «أئمة أهل البيت عليهم السلام»، ومعنى المفردتين «الحنف» و «الجنف» أستعملها القرآن في مورد «الإمامة» التي هي مرتبطة بالله تعالى، وكونها مرتبطة بالله تميزت بالهداية الأيصالية فهم يهدون بأوسع باب الهدايتة لأنهم أئمة يهدون بأمر الله لقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ [سورة الأنبياء: ٧٣] ومن فعل الخيرات الميل إلى الاستقامة في الأفعال والأقوال، وبعكسها المعني الثاني للإمامة وهوالميل عن الاستقامة إلى الضلال.

أوجد القرآن الكريم تصورات غنية بمعطياتها الايجابية التي تسمح بما يقتضيه النظر العلمي الموضوعي للنص بأكثر من تأويل مادام الأمرمتعلقاً بمفردة الهداية التي يتم التعبيرعنها بصيغ مختلفة ضمن ارتباطها بالآية، وقد عرّف الطباطبائي هذه الهداية من شؤون الإمامة ليست هي بمعنى اراءة الطريق لان الله سبحانه جعل إبراهيم عليه السلام إماما بعد ماجعله نبياً ولا تنفك النبوة عن

(٦٨) الراغب: المفردات/ ص١٣٣.

الهداية بمعنى اراءة الطريق فلا يبقى للإمامة ألا الهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب، وهو نوع تصرف تكويني في النفوس بتسييرها في سير الكمال ونقلها من موقع معنوي ال موقع آخر.

ثم يخصص دورها قائلاً: إذ كانت تصرفاً تكوينياً وعملاً باطنياً فالمراد بالأمر الذي تكون به الهداية ليس من الأمر التشريعي الاعتباري بل مايفسره في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ [سورة يس: ٨٢ -٨٣] فهو الفيوضات المعنوية والمقامات الباطنية التي يهتدي إليها المؤمنون بإعمالهم الصالحة، ويتلبسون بها رحمة من ربهم[٦٩] فمنهم من صلح للإمامة ليكون قدوة في دين الله يهدي للخير والعمل بالشرائع[٧٠] فالهداية محتومة عليه، مأمور هو بها من جهة الله، ليس له أن يخل بها ويتثاقل عنها، وأول ذلك أن يهتد بنفسه، لآن الانتفاع بهداه أعم، والنفوس إلى الاقتداء بالهدي أميل[٧١] إلى طريق الحق فيقتدي به في أفعاله[٧٢] فضلًا عن أقواله.

إذن إذا كان الإمام يهدي بألامر- الباء للسببية أو إلالة -فهو متلبس به أولاً ومنه ينتشر في الناس على اختلاف مقاماتهم فالإمام هو الرابط بين الناس وبين ربهم في إعطاء الفيوضات الباطنية وأخذها، كما إن النبي رابط بين الناس وبين ربهم في اخذ الفيوضات الظاهرية وهي الشرائع إلاهية تنزل بالوحي على النبي وتنتشر منه بتوسطه إلى الناس وفيهم، والإمام دليل هاد للنفوس إلى مقاماتها كما ان النبي دليل يهدي الناس الى الاعتقادات الحقة والأعمال الصالحة[٧٣] وكذلك الأئمة يقتدى بهم في أفعالهم واقوالهم فهم يهدون الناس

(٦٩) الطباطبائي: الميزان في تفسير القران/ ج١٤/ ص٣٠٤.
(٧٠) الخازن: لباب التأويل في معاني التنزيل/ ج٤/ ص٣٠٢.
(٧١) الزمخشري: الكشاف/ ج٣/ ص١٢٧.
(٧٢) الطباطبائي: الميزان في تفسير القران/ ج١٤/ ص٣٠٤.
(٧٣) الطوسي: تفسير التبيان/ ج٧/ ص٢٦٥. والالوسي: روح المعاني/ ج٩/ ص٦٨.

الى طريق الحق والى الدين المستقيم بأمر منه تعالى فمن أهتدى بهم فالنعمة لله[٧٤] على هدايته.

ويستنتج من هذا امران: احدهما ان الامام يجب ان يكون معصوماً عن الضلال والمعصية، وإلا كان غير مهتد بنفسه، كما تدل عليه الآية المتقدمة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ [سورة الأنبياء: ٧٣] فأفعال الأمام خيرات يهدي إليها لا بهداية من غيره بل باهتداء من نفسه بتأيدإلهي وتسديد رباني والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ فهو يدل على أن ما فعلوه من الخيرات، إنما هو بوحي باطني وتأييد سماوي والثاني: عكس ألأمرالأول، وهو أن من ليس بمعصوم فلا يكون أماماً هادياً الى الحق ألبته[٧٥] حتى وان كان على استقامة دينية أومرجعية اجتماعية.

٢. **الإمامة غير الشرعية:** ساق القرآن وصفاً لها وخصص ذلك الوصف بالدعوة الى النار، ونقل لنا صورة لها وسماها بإمامة الكفر والنفاق، وهي دعوة لاضير أن مصيرها النار لقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [سورة القصص: ٤١-٤٢].

إن هؤلاء أصحاب الإمامة غير الشرعية يصورهم النص القرآن نموذجاً واضحاً في الدعوة إلى النار، بوصفه تعبيراً مجازياً وهي الدعوة إلى ما يستوجب النار من الكفر والنفاق لكون أعمالهم هي التي تتصور لهم يوم القيامة ناراً يعذبون فيها، والمراد بالنار-في الآية-هو ما يستوجبها مجازاًمن باب أطلاق السبب وإرادة سببه، وهو التعبير الذي يتناسب مع الحالة التي يراد وصفها.

هنا في هذا النص تكرست الصورة

(٧٤) الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القران/ ج٧/ ص٥٦.
(٧٥) الطباطبائي: الميزان في تفسير القران/ ج١ ص٢٧٤.

السلبية التي يراد وصفها عن قيادة الضلال من خلال النظرة التي كونها النص حيث جعلهم (أئمة يدعون الى النار) تصييرهم سابقين في الضلال لكونهم أئمة كفر يقتدى بهم الاحقون ولاضير فيه، لكونه بعنوان المجازة على سبقهم في الكفر والجحود وليس من الاضلال الابتدائي في شيء[٧٦].

وفي سياق النص القدرة على التأثير في أظهار موقفهم يوم القيامة يتخيل لهم أنهم يتناصرون ينصر بعضهم البعض كما لو كانوا في الدنيا، ولكن الأمر ليس كذلك، وإنما يرقى إلى مستوى النقيض مما يتصورون فهم يومئذ لا يتعارفون فضلا عن التناصر تتابعهم اللعنات لعنة بأثر لعنة، وهو الطرد ولا بعاد عن رحمة الله[٧٧].

أن هذا المنحى القرآني لهذا الاستمرار المترادف من اللعن يقتضي أيضاً إلزام الملائكة وكذلك المؤمنين خلفاً عن سلف به لأنهم من المقبوحين المطردين المبعدين عن كل خير، وهم أيضاً المشوهين في ألخلقه بسواد الوجوه مجازاة علي عملهم من خلال قيادتهم لكونهم أئمة كفر يقتدي بهم من كان خلفهم في الكفر والمعاصي[٧٨] وكان الأمر أيضاً يتعلق بوصفهم المتعدد الأبعاد حتى حمل آخرون القبح الروحاني على الطرد والأبعاد من رحمة الله تعالى، ويرى البعض القبيح في الصورة لأنه تعالى يقبح صورهم ويشوهها ويقبح عليهم عملهم ويجمع بين الفضيحتين في الدنيا وفي الاخرة[٧٩].

وقد عمل الخطاب القرآني على تحديد هوية هذه الإمامة غير الشرعية حين أطلق عليها صفة أخرى وهي صفة «أئمة الكفر» وأمر بقتالهم لأنهم لاايمان لهم بقوله تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ

(٧٦) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن/ ج١٦/ ص٣٨.
(٧٧) الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القران/ ج٨/ ص٢٥٥.
(٧٨) الالوسي: روح المعاني/ ج١٠/ ص٢٩١.
(٧٩) الفخر الرازي: التفسير الكبير/ ج٢٤/ ص٢٥٥.

أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴾ [سورة التوبة ١٢].

أستهدف القرآن في هذه الآية أمرين:

الأول: نكث الإيمان، وهو نقض العهد الذي جعل لتوثيق الأمر لأنهم لا وفاء لهم بالعهود[٨٠] لكونهم غير مؤمنين بعد ما نكثوا العهد، وكيف يكون لهم عهد وهم يرضونكم بأفواهم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون[٨١].

الثاني: القتال الذي أمر الله به -في قوله ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴾ [سورة التوبة ١٢] وهو سبب نقضهم للعهد فأنهم لاينتهون من الكفر والنفاق بدون القتال، فيكون الغرض من مقاتلتهم بعدما وجدوا منهم تقض عهودهم من بعد ما عقدوها، فتكون المقاتلة سبباً في انتهائهم عماهم عليه من الكفر[٨٢].

وقد اختلف المفسرون في دلالة الآية، فذهب البعض إنها نزلت في قادة قريش وذهب البعض الاخبأرإنها في فارس والروم، وبعضهم يرى إنها في الفئة الناكثة والباغية والمارقة[٨٣] وقد اعتمد هؤلاء على نصوص من الروايات تقرب لهم الغرض من نزولها، كما في قول حذيفة بن اليمان: هوما أخرجها بن أبي شيبة وغيره ونقلها معظم المفسرين قال: (ما قوتل أهل هذه الآية بعد)[٨٤] ولم يأت أهلها[٨٥] وما يؤكد هذه الرواية ما روي ايضاً عن ابي جعفر- الباقر عليه السلام- انها نزلت في اهل الجمل، كما روي ذلك عن علي عليه السلام وعمار وغيرهما[٨٦] وفي تفسير العياشي

(٨٠) الطوسي: تفسير التبيان/ ج٥/ ص١٨٢.
(٨١) الطباطبائي: الميزان في تفسير القران/ ج٩/ ص١٥٨.
(٨٢) الفخر الرازي: التفسير الكبير/ ج١٥/ ص٢٣٤.
(٨٣) الطبرسي: البيان في تفسيرالقرآن -ج٥- ص٣.
(٨٤) الالوسي: روح المعاني/ ج٥ -ص٢٥٣.
(٨٥) الخازن: الباب التاويل فيمعاني التنزيل-ج٣ -ص٨٤.
(٨٦) الطوسي: تفسير التبيان/ ج٥/ ص١٨٣.

عن عليعليه السلام عذرني الله من طلحة والزبير بايعاني طائعين غير مكرهين، ثم نكثا بيعتي من غير حدث أحدثته، والله ما قوتل أهل هذه الآيةمنذ نزلت حتى قاتلتهم وقرأ قوله تعالى ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم ﴾[87].

المفسرون على كثرتهم قد تفوتهم الرؤية الصائبة فهم يستدلون بحسب قواعد متبعة عندهم، فمن أخطأ فله أجره، ومن أصاب فأجره مضاعف لمن أراد إن يخلص لله في عمله يجد فسحة في البصيرة فيتبع ما هو أقوم للحق.

يرى الطباطبائي سياق الآية يدل على أنهم غير المشركين الذين أمر الله سبحانه في الآية السابقة بنقض عهدهم وذكر أنهم هم المعتدون لايرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة فأنهم ناكثون للإيمان ناقضون للعهد، فلا يستقيم فيهم الاشتراط الذي ذكره الله سبحان بقوله ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم ﴾.

فهولاء قوم آخرون لهم مع ولي الأمر من المسلمين عهود وأيمان ينكثون أيمانهم من بعد عهدهم أي ينقضون عهودهم من بعد عقدها فامر الله سبحانه بقتالهم والغى أيمانهم، يقاتلون جميعاً لعلهم ينتهون عن نكث الإيمان ونقض العهود[88] التي بينهم وبين ولي الأمرالإمام عليعليه السلام الذي كان يؤمن أن الوحدة بين الدين وسياسةالمسلمين لانفصام لها، وماحدث في خلافته يمكن إن يفسر خلاف سياسي يضر في مصالح المسلمين، وان بعض الذين حاربوا باسم دم عثمان ليسوا من ذوي قرباه وكانوا الى وقت قريب من أشد الناقمين عليه، ثم كيف يكون دم عثمان سبباً للنزاع ثم تتم المساومة على الدم المسفوك، يريد احدهما ولاية البصرة والأخر ولاية الكوفة والثالث أن يسكت له الإمام عليعليه السلام عن ولاية الشام، فهو يرى في حرب هؤلاء الناكثين والقاسطين والمارقين-مع أنهم

(٨٧) تفسير العياشي: ج٢/ ص٧٩/ الحديث ٢٨، الامالي للمفيد/ ص٧٢ الحديث/ ٧، شواهد التنزيل/ ج١/ ص٢٧٦، عن الطباطبائي تفسيرالبيان/ ح٥ ص٩٣.

(٨٨) الطباطبائي: الميزان في تفسيرالقرآن-ج٩- ص١٥٩.

جميعنا مسلمون -أنها لأتقل أهميةعن حربه مع رسول الله للمشركين، وكان يقول لوكشف عني الغطاء ما ازددت يقيناً، فكان يحارب مع رسول الله على تنزيل القرآن، وهو إثناء خلافته يحارب على تأويله[٨٩].

وفي تفسير العياشي عن الإمام الصادق(عليه السلام) قال: دخل علي أناس من أهل البصرة فسألوني عن طلحة والزبير فقلت لهم كانا من أئمة الكفر إن علياً يوم البصرة لما صف الخيول قال لأصحابه لاتعجلوا على القوم حتى اعذر فيما بيني وبين الله تعالى وبينهم فقام إليهم فقال يا أهل البصرة: هل تجدون عليَ جوراً في حكم؟. قالوا لا، قال: أفي حيفا في قسمة؟. قالوا: لا، قال: فرغبة في دنيا أخذتها لي ولا هلي بيتي دونكم فنقمتم علي فنكثتم بيعتي؟. قالوا لا، قال: فأقمت فيكم الحدود وعطلتها عن غيركم؟. قالوا: لا، قال: فما بال بيعتي تنكث وبيعة غيري لا تنكث، إني ضربت الأمر انفه وعينه فلم أجد إلا الكفر أو السيف ثم أثنى إلى أصحابه فقال: إن الله تعالى يقول: في كتابه وان نكثوا إيمانهم من بعد عهدهم[٩٠] وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون » ثم فقال امير المؤمنين(عليه السلام): والذي فلق الحب وبرء النسمة واصطفى محمداً بالنبوة إنهم لأصحاب هذه الآية وما قوتلوا مذ نزلت»[٩١].

ومن هنا نرى أن الامام(عليه السلام) بعدما أقام الحجة عليهم أستدل بالآية ثم خصهم على أنهم أصحاب هذه الآية، وإنهم ما قوتلوا منذ نزلت إذن هم البغاة وجريمتهم الجنائية خروجهم على الامام صاحب السلطة الشرعية.

أما سبب الخروج هو نقض البيعة، وهي العهد على الطاعة، كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلّم له النظر في أمر نفسه لا ينازعه في شيء من ذلك

(٨٩) احمد محمود صبحي: نظريةالإمامة- ص٣٠١.

(٩٠) الفيض الكاشاني: تفسيرالصافي -ج٢- ص٣٢٤.

(٩١) الطباطبائي: الميزان في تفسير القران/ ج٩/ ص١٨٢.

ويطيعه في ما يكلفه به من الامر، وكانوا إذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد، ومنه إيمان البيعة، وكان الخلفاء يستحلفون على العهد ويستوعبون الايمان كلها لذلك سمي هذا الاستيعاب "أيمان البيعة"، وكان لا أكراه فيها[٩٢].

وما دامت البيعة شرعية لا أكراه فيها لم يكن مبرراً مطلقاً نقضها والخروج على ولاية الامام الشرعية، وأن الله تعالى يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾[سورة المائدة: ١].

فالوفاء بالعهد وحفظ المواثيق هي من أولويات الشريعة ولما كان عقد البيعة من أهم العقود والمواثيق الدينية، وجب الوفاء به وقد أكد القرآن على ذلك في الوفاء بالعقد والعهد بجميع معانيه وفي جميع مصاديقه –ومنها عقد البيعة –وشدد فيه كل التشدد، وذم الناقضين للمواثيق ذماً بالغا، وأوعدهم إيعاداً عنيفاً ومدح الموفين بعهدهم أذا عاهدوا في ايات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [سورة الاسراء: ٣٤].

وليس ذلك إلا لان العهد والوفاء به مما لا غنى للإنسان في حياته عنه أبداً والفرد والمجتمع في ذلك سيّان[٩٣] كل ذلك كان احتراما للعهد ومراعاة لما تقتضيه مصلحة المسلمين، وليس للعاقد أن ينقض العقد ما دامت البيعة شرعية لا اكراه فيها، فالناقض للعهد والخارج على الامام يعد باغياً.

والمعرف أن البغي في المصطلح الفقهي هو «خروج جماعة» مسلحة على الحكومة الشرعية «الامام» ومحاربتها أو بعبارة أخرى هو: تمرد وعصيان مسلح ضد الحكومة الشرعية، قد يكون هدفه قلب نظام الحكم بالقوة، وقد يكون هدفه اقتطاع جزء من البلاد، والاستقلال به من الدولة كما فعله معاوية.

وهذا الأخير كان منذ البداية يسعى جاهداً الى رد الاعتبار الجاهلي

(٩٢) ابن خلدون: المقدمة/ ص٢٠٩.

(٩٣) الطباطبائي: الميزان في تفسير القران/ ج٥/ ص١٥٩.

الذي أفتقده الأمويون في الإسلام، فاستعمل وسائل غير مشروعة ومخالفة للأسلام، فكان اول من أستعمل الإرهاب في الاسلام لتصفية معارضيه في الأغتيالات مرة بالسيف، وفي السم مرة أخرى وقد أستخدم سياسة المكر والمراوغة وبذل المال وأستخدمه استخداماً ماهراً لاقامة حكمه المستبد، وكان من أبرز اهدافه الغاء نظام الخلافة، وابداله بنظام مستبد قائم على الغلبة والجبروت مماثلة لنظام الأكاسرة والقياصرة.

إن مثل هذا النظام الذي عرف عند المسلمين بنظام دولتي الاكاسرة في الشرق والقياصرة في الغرب كان معروفاً ومميزاً عندهم بالأستبداد، كما أن القران الكريم هو أول من وضع أساس هذه الفكرة، فقد أعطى صورة حية مجسمة للحكم الاستبدادي واوضح ما فيه من مثالب وبين ما انطوى عليهمن مساوئ حتى وصف الحكم الفرعوني بأدق الوصف، وبين درجة ما وصل إليه من الظلم، وقد أراد الطاغية أن يتحكم حتى في حياة الناس فاصبحت الفرعونية علماً على حكم الفرد المستبة او حكم الجور والطغيان، و مثلها صارت «الكسروية» و «الهر قلية» مثلاً عند المسلمين واشار الله سبحانه أيضاً الى هذا النوع من الحكم[٩٤] المتجبر الفاسد بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [سورة النمل: ٣٤].

فالقران الكريم مهد للمسلمين معرفة الحاكم المستبد حتى لاينسلخوا عن حكم قرآنهم ويسقطوا دولتهم في براثن هؤلاء الجبابرة، وهو الذي قصده الامام علي عليه السلام حين خطب أهل الكوفة فأشار الى معاوية وانصاره قائلاً: والله لو ولوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل"[٩٥] وقوله ايصاً عنهم، وهو يخطب في أهل الكوفة حاثاً لهم على الجهاد سيروا الى القاسطين فهم

(٩٤) الريس: النظريات السياسية الاسلامية/ ص١٠٠.
(٩٥) ابن الاثير: الكامل في التاريخ/ ج٣/ ص١٤٧.

أهم علينا من الخوارج: سيروا الى قوم يقاتلونكم كما يكونوا جبارين يتخذهم الناس أرباباً، ويتخذون عباد الله خولاً، ومالهم دولاً[٩٦]، والخول العبيد.

وقد أشار الخليفة عمر الى هذا المعنى مستنكراً ما رأه من معاوية عندما قدم عليه في أبهة الملك وزيه من العديد والعدة فقال له غاضباً: أكسروية يا معاوية[٩٧]؟.

وقد أراد عمر بالكسروية، ما كان عليه أهل فارس أنداك في ملكهم من ارتكاب الباطل والظلم والبغي وسلوك سبله والغفلة عن الله، ولكن معاوية اراد أن يستغفل عمر فاجاب بان القصد بذلك ليس كسوية فارس وباطلهم وانما قصده بهذه الكسروية وجه الله قال ابن خلدون: فسكت عمر[٩٨] فكان سكوت عمر ليس من المصلحة وهو خليفة المسلمين وهو الذي يمثل سياسة الخلافة الدينية في المدينة ولم يتخذ الردع المناسب بحق معاوية، وهو أقل مايمكن فعله عزله من ولاية الشام حذراً من التباس الباطل بالحق، واقتداء الناس به.

هذه العلاقة القائمة بين الخليفة و ولاة الامصار علاقة مباشرة في تنفيذ سياسة الدولة الدينة، وعدم تنفيذها أو الاخلال بها يجري عليه الأنكار في حالة ارتكاب المنكر، وهذا الواجب لا يسقط إلا بالعجزعنه وليس هناك منكراً اكبر من سفه الحاكم وسياسة الامة بغير ما أنزل الله، لذا فمسؤولية الخليفة عمر مسؤولية شرعية مباشرة من أجل صيانة الخلافة وحفظ ولاة الامصار من الأنحراف والوقوع في الباطل وهم يمثلون الخلافة المركزية، فكانت هذه احدى المؤخذاة على عمر في خلافته حيث فسح المجال لتصرف معاوية ولم يردعه أو يخطئه حتى ذهب بعيداً في تجبره ومكره وخداعه، فكان سكوت عمكر عن سياسة معاوية هي التجربة الاولى التي شجعته على قلب نظام الخلافة الى نظام كسروي وجرت

(٩٦) المسعودي: مروج الذهب/ ج٢/ ص٢٦.
(٩٧) ابن خلدون: المقدمة/ ص ٢٠٣.
(٩٨) ابن خلدون: المقدمة/ ص ٢٠٣.

طبيعة التغلب على الخلافة بدون الرجوع الى بيعة أهل الحل و العقد التي كانت عليها الخلافة الاسلامية، وأنما صارت البيعة المشهودة لهذا العهد الاموي هي تحية الملوك الكسروية من تقبيل الارض او اليد او الرجل او الذيل -المراد منها اذلال المسلمين- واطلق عليها اسم البيعة التي هي العهد على الطاعة مجازاً، حتى صارت حقيقة عرفية واستغنى بها عن مصافحة أيدي الناس التي هي الحقيقة في أصل البيعة[٩٩].

وقد ظل هذا الحكم الذي يوسس بحد السيف حكماً فرعونياً لا يمت الى الاسلام بصلة، فمن اللغو الزعم ان هذا الحكم الاموي هو حقبة إسلامية اقتضتها الضرورة أستناداًللامر الواقع، بل الصحيح هو أضر بالاسلام عقيدة وشريعة أبلغ الضرر وافدحه وجعل الاسلام مجرد دولة لادعوة، وهي كانت محاولة أستئصال روحية الاسلام واخلاقيته.

ولكن هذه المحاولة لم يتم لها النجاح وندثر قصدها وتلاشت قوتها بفضل ثورة الحسين عليه السلام التي قلبت الموازين ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [سورة الصف: ٩].

فالامامة بمقتضى الاية من عهد الله التي لا يتطرق اختيار الناس اليها مطلقا اما انها من عهد الله فقوله ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ واما انها من اختياره فلقوله تعالى ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ الامر الذي يثبت عدم جواز اختيار الناس للامام ولقد اختار الله ابراهيم للامامة بعد ان اختاره للنبوة، ولما كان الاجماع قد انعقد على ان الاختيار للنبوة من شأن الله فحسب، فوجب اذن ان يكون منصب الامامة من الله، وقد اشار الله تعالى الى ذلك في اكثر من موضع كقوله ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [سورة الانبياء: ٧٣] فالله تعالى اوحى اليهم فعل الخيرات وجعلهم ائمة للناس

(٩٩) ابن خلدون: المقدمة/ ص ٢٠٩.

لهدايتهم[١٠٠] والاقتداء في افعالهم واقوالهم فهم الذين يهدون الى طريق الحق والدين المستقيم، فمن اهتدى بهم فالنعمة لله تعالى عليه[١٠١] وهذا في غاية الاهمية في الدنيا والاخرة اذ كان اختيار الدليل منه تعالى ليصح الاقتداء به وهكذا اذن يكون وقوع المناصب الاتية من قبل الله تعالى فكما ان النبي صلى الله عليه وآله نبي ولو لم تتفق عليه امة، فكذلك الامام امام وان لم يبايعه احد، والحكيم حكيم وان لم يعرف قدره الجاهل، والعالم عالم سواء سئل ام لا، ولكن العجب - كما يرى صدرالمتألهين -كله خفاء هذا الامر الجلي على العقلاء الذين جعلوا الخلافة والولاية -وهو امر باطني - على ميل الطبايع، واتفاق الجماعة على شخص، مع ان طبائعهم مجبولة على طاعة الشهوات، راغبة عما به يحصل القربات، ويستحق للمثوبات[١٠٢] لذا ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾.

ولاية الامامة بين الوجوب والجواز:

الواجب في اللغة: قال الجوهري: وجب الشيء أي لزم، ويجب وجوباً واوجبه الله واستوجبه أي استحقه[١٠٣] وهو ضربان -عند الراغب -:

الاول: واجب من جهة العقل كوجوب الوحدانية، ومعرفة النبوة - وكذلك الامامة -.

الثاني: واجب من جهة الشرع كوجوب العبادات الموظفة[١٠٤] في مجالها التعبدي.

ان للامة مصالح كثيرة واهمها تنظيم وجودها في محيطها كي تسعد في حياتها ومن هذه المصالح وجود نظام حكم يستند على سياسة حكيمة تلبي ما تحتاج اليه الامة.

(١٠٠) احمد محمود صبحي: نظرية الامامة، ص٨٢.

(١٠١) الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٧، ص٥٦.

(١٠٢) صدر المتألهين الشيرازي: تفسير القرآن الكريم، ج٥، ص٢٠٦.

(١٠٣) الجوهري: الصحاح، ج١، ص٦٦٤ تحقيق مرعشلي.

(١٠٤) الراغب: المفردات، ص٥١٢.

فالحكم: اذن ضرورية اجتماعية تقضي بوجود نظام يرعى مصالح الناس وشؤون حياتهم، والا اصبحت الامة غير قادرة على النهوض وادامت حياتها فلا يمكن لاي مجتمع ان يستقيم له امر من دون وجود سلطة يلقي عليها مسؤولية تبعاته، وقد نص الأمام علي عليه السلام على وجوبها عندما تعرض له أحد الخوارج وهو يخطب فلما سمع قوله ((ولا حكم إلا لله قال: كلمة حق يراد بها باطل، نعم إنه لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إنه لابد للناس من أمير بر أو فاجر، يعمل في إمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر)) هذا النص صريح منه عليه السلام بأن الأمامة واجبة[١٠٥].

لذا ذهبت معظم الفرق الاسلامية الى القول بوجوب الامامة ولكن السؤال يبقى هل الامامة فرض مطلقا ام هي امر جائز ليس بفرض؟. فاذا شاء المسلمون اقاموا اماما واذا لم يريدوا ليس في الشريعة ما يلزمهم على ذلك؟.

كل ذلك في امر الوجوب والجواز نجده في آراء الفرق الاسلامية التي خاضت معارك كلامية في مختلف فصول الامامة، فذهبت معظم هذه الفرق الى القول بوجوب الامامة منهم اهل السنة باجمعهم والمذهب الشيعي جميعا ومذهب الخوارج، وجميع المرجئة واكثر المعتزلة.

اما الجواز فقد ذهب اليه ابو بكر الاصم، والهاشمية المعتزلة اصحاب هشان بن عمرو الفوطي[*] فهم يقولون: بجواز عقد الامامة في حالة الاتفاق والسلامة، ولا تنعقد الا باجماع الامة عن بكرة ابيهم[١٠٦] والى مثل هذا ذهب احد العتزلة ((عباد

(١٠٥) أبن أبي الحديد: شرح نهج البلاغ، ج٢ ص٣٠٧.

(*) الهاشمية: اتباع هشام بن عمرو الفوطي (٢٢٦هـ -٨٤٠م) ولهشام هذا مسائل كثيرة اختص ببعضها منها الامامة لا تنعقد الا في حالة السلامة اما في حالة الفتة فلا يجوز وفي هذا الرأي اراد الطعن في امامة علي عليه السلام اذ كانت البيعة بعد مقتل عثمان، الشهرستاني، ج١، ص٧٢.

(١٠٦) البغدادي: اصول الدين، ص٢٧١.

بن سليمان)) حيث قال: ان الامة اذا اجتمعت واصلحت ولم تتظالم احتاجت حينئذ الى امام يسوسها ويديرها وان عصت وفجرت وظلمت استغنت عن الامام[١٠٧] وكذلك نقل الشهرستاني رأي النجدات من الخوارج قال: ان الامامة غير واجبة في الشرع وجوبا لو امتنعت الامة عن ذلك استحقوا اللوم والعقاب، بل هي مبنية على معاملات الناس، فان تعادلوا وتعاونوا وتناصروا على البر والتقوى واشتغل كل واحد من المكلفين بواجبه وتكليفه استغنوا عن الامام ومتابعته[١٠٨].

ان مثل هذ الاراء الشاذة لم تعالج نظرية الوجوب والجواز بصيغ علمية وانما تبرهن على ان الدوافع السياسية التي تتحكم في الاراء والمعتقدات هي ذاتها طبيعة متغيرة تبعا لتطور الاحداث.

(١٠٧) ابن حزم: الفصل في الملل والاهواء والنحل، ج٤، ص٢٠٤.
(١٠٨) الشهرستاني: نهاية الاقدام في علم الكلام، ص٤٨٢.

الوجوب العقلي والسمعي:

اختلف القائلون بالوجوب من حيث الدليل على وجوب نصب الامام هل هو دليل العقل او دليل الشرع او هما معا؟.

وقد ذكر هذا الاختلاف الماوردي قائلا: اختلف في وجوبها -الامامة- هل وجبت بالعقل او بالشرع، فقالت طائفة وجبت بالعقل لما في طباع العقلاء من التسلم لزعيم يمنعهم من التظالم ويفصل في التنازع والتخاصم ولولا الولاة لكانوا فوضى مهملين همجا مضاعين.

وقالت طائفة اخرى بل وجبت بالشرع دون العقل لان الامام يقوم بامور شرعية قد كان مجوزا في العقل ان لا يراد التعبد بها، فلم يكن العقل موجبا لها. وانما اوجب العقل ان يمنع كل واحد نفسه من العقلاء عن النظام والتقاطع ويأخذ بمقتضى العدل في التناصف والتواصل فيتدبر بعقله لا بعقل غيره.